الفصل السابع

العصر العباسى

وصف الطبيعة الميتة

السحاب والمطر – الأنهار والبرك – السفن – الأزهار والثمار – الرياض – الليل والأفلاك – الأطلال – القصور والأبنية – المآكل والأطعمة – مرافق البيت

ألم العباسيون بالبساتين والرياض ، فعاشوا فى هذه الطبيعة الجميلة ، ينعمون بالزهر والنور ، وينظرون إلى السماء ، وأفلاكها ، والأنهار والبرك والقصور المشيدة ، والسفن ومرافق العيش الجديدة ، فكانت حياة ناعمة مترفة لكثير من طبقات الأمة ، وذهب الشعراء مذاهب بعيدة فى وصف هذا الكون الجديد ، واستطاع بعضهم أن يحلق بجناحين فى آفاق حديثة ، وقعدت ببعضهم أجنحة الشعر عن التحليق ، فلبث يردد صور القدماء وألفاظهم ، وسنعرض هنا نماذج لهذا الشعر الذى انطلق منذ فجر العباسيين حتى وقف الاختراع والابتداع ، وأصبحت همة الشاعر فى أن يجتر وأن يعيد وأن يقلد .

السحاب والمطر

نظر الشعراء فى هذا العصر إلى السحاب كما نظر القدماء فرأوا فيه قاتل المحل وجالب الخير والغيث والنعمة . والشرق العربى كله ما يزال ينظر اليوم إلى المطر والسحاب نظر القدماء فيرى فيهما قتلا للجدب وسبباً للخصب .

قال أبو تمام يصف ديمة إنها سمحة القياد سكوب ، يستغيث بها الثرى المكروب . ووصف السحاب فى مكان آخر فقال إن الدنيا صاحت : لقد أتى قاتل المحل ، وارتدى الروض بالبقل ، وانطوت بطون الأرض على خمل . فاهتزت ارتياحاً لرقعه كما تهتز البكر للبعل .

ورأى ابن الرومى فى السحائب غطاء للأغوار والنجود أقبلت تتهادى فى سيرها فرأت الأرض فيها حياة بعد همود وغيثاً بعد إمحال ، وقال الناس هذه فتوح السماء قد ظهرت لتطفىء الغليل . وفى قصيدة ثانية قال الشاعر :

إن هذه السحب يرسلها سائقها كيفما يشاء فتجود بدرّها ، وتنبجس الأرض وينشق الأديم فتقضى حقوق القيعان وبعد عقوق ، وتجرى المياه فوق الربى والوهاد ، وحينئذ يتضاحك الروض الكئيب ويتفق الزهر والنور ، ويتنسم الخلق النفحات ويضوع المسك ، ولايرد الطير فى كل مكان كأنه طرب مشوق يتعلل بالغناء .

والبحترى أجاد فى وصف السحابة والبرق فرسمهما رسماً موفقاً حين قال :

ذات ارتجاز كحنين الرعد ... مجرورة الذيل صدوق الوعدِ
مسفوحة الدمع بغير وجد ... لها نسيم كنسيم الوردِ
ورنة مثـــل زئير الأسد ... ولمع برق كسيوف الهند
جاءت بها ريح الصبا من نجد ... فانتثرت مثل انتثار العقد
فراحت الأرض بعيش رغد ... من وشى أنوار الربى فى بُرد
كأنما غدرانها فى الوهد ... يلعبن من حبابها بالنردِ

ففيها الرعد وصدق الوعد ، وهى تبكى بدمع مسفوح بغير وجد ، ونعيمها كنسيم الورد ، وزئيرها كزئير الأسد ولمعها كسيوف الهند ، وقد حملتها ريح الصبا من بعيد فانتثرت كما ينتثر العقد ، فأنعشت الأرض بالنور والزهر وأصبحت الغدران منها يرقصن بالحباب كما يلعب بالنرد . وهذه أوصاف حسية شبه كل

شيء منها بشيء يضارعه ثم كساها عاطفة الحنين والدمع والوجد وجعلها للخير والبركة والعيش الرغد . ولكنه لم يصف شكلها وضبابها ، والرسوم التي تنشأ فيها ، وإنما رسم تأثيرها في الأرض وخدمتها للدنيا فقلد القدماء وجمع فيها كل ما قالوا في مثل هذا الموضوع ، ولكنه أفاض في التشبيهات وزاد في رقة اللفظ فجاءت عبارته تغنّي غناء كما قال النقاد في شعره كله .

وأما ابن المعتز فقد حسب أن السحائب لا تمل البكاء ، وأن دموعها تجرى في خدود الثرى ، يقدح منها البرق كالسيوف الهندية ، فإذا دنت من الأرض جلجل الرعد أجش كصوت الرّحا ، ثم سحّت فارتدت الأرض بالنور والزهر ، وشبّ النبات واكتهل . وفي قصيدة أخرى ، قال الشاعر إن البرق يضحك فيها فتتصل الأرض بالسماء كما تتصل الخيم بالحبال ، فكأن رعدها مستعبر يبكي في صخب ، وهي أبداً مثقلة بالماء تتهادى فوق أعناق الرياح ، ينفتح بها النور وينتشر بها العطر .

وقد وصف الشعراء البرق بمثل طرف العين في سرعته أو الشهب في هبوطه أو كأنه حية تصدّعت أحشاؤها — كما قال ابن المعتز — أو كأنه سيوف لمعت لكنها تفعل في الأرض فعل الوجد بأحشاء الحزين . وأبو تمام يرى البرق يتحول إلى ماء وهو نار ، يرضي الثرى ويسخط الغبار ، ويرى البحتري سرى البرق البرق كنبض العرق ، وابن المعتز يجد أن البرق يشقق السحاب كما يصدع المشرفي هامات الرجال ، أوكأنه سنا قبس في جذوة من نار .

الأنهار والبرك

وما دمنا قد عرضنا للسحاب والمطر فسنعرض للجداول والأنهار والبحيرات مما وصفه هؤلاء الشعراء ؛ فقد وصف ابن المعتز دجلة عند الفيضان فرآه كالبحر تخر لفيضانه الجدران كأنها تسجد أو تركع ، والسقوف تمطر والأرض أعين

تنبع ، والبستان فجوة يسبح فى مائها الضفدع . ووصف شاعرنا بركة غناء تموج فيها الماء ،كأنها فى الدجى مرآة قد انصقلت ومقبضها الخليج .

ووصف البحترى بركة المتوكل كأنها واحدة فى الدنيا يليها البحر فى العظمة ، وهى تنافس دجلة فى الحسن وتباهيه كأن جنّ سليمان أبدعوها ، فلو أن بلقيس مرت بها عرضاً لقالت إنها الصرح تمثيلا وتشبيهاً ، تنصب فيها دفقات الماء كالخيل تخرج من حبال مجريها أو كأنها الفضة البيضاء سائلة من السبائك ، فإذا مرّت الريح أبدت فوقها صوراً كالدروع مصقولة الحواشى ، وإذا انعكست فيها النجوم حسبتها سماء ركبت فيها النجوم ، تغوص الأسماك فيها وتغيب ، وتحفها الرياض كريش الطاوس فى تلوينها وزينتها :

فحاجب الشمس أحياناً يضاحكها ورّيق الغيث أحياناً يباكيها
إذا النجوم تراءت فى جوانبها ليلا حسبتّ سماء ركبت فيها

ووصف المتنبى بحيرة طبريّة فصور الموج مُزبداً والطيور فوق حبابها كفرسان بلق تخونها اللجم ، فحين تضربها الرياح تحسب أن بها جيشين يتحاربان أحدهما هازم والآخر منهزم . ووصف أبو فواس الماء والبرك فقال :

انظر إلى زهر الربيع والماء فى برك البديع
وإذا الرياح جرت عليـ ـه فى الذهاب وفى الرجوع
نثرت على بيض الصفا ثم بيننا حلق الدروع

فشبه صفحة البركة — كما فعل البحترى — بالدرع وحلقه تبدو كالموج الضعيف حين تهب عليه الرياح مقبلة مدبرة .

وأكثر الشعراء وصفاً للنهر فى هذا العصر هو الصنوبرىّ ، إذ رسم نهر « قويق » فى حلب عدداً من المرات فى شعره ، هجاهُ وسخر منه فقال :

« قويق » إذا شم ريح الشتا ء أظهر تيهاً وكبراً عجيبا
وناسب دجلة والنيل والـ فرات بهاء وحسناً وطيبا

وإن أقبل الصيف أبصرتـــه ذليـــلا حقـــيراً حزينـــاً كئيبا
إذا ما الضفادع ناديتـــه قويق قويق! أبى أن يجيبا !
تغوص الجـــرادة فى قعـــره وتأبى قوائمـــها أن تغيبا!

فهو يصف النهر فى الشتاء على كبر وتيه كأنه يفاخر دجلة والفرات والنيل لكثرة ما ينصب فيه من سيول وأمطار ، ولكن الصيف يكشفه فيبدو ذليلا حقيراً كئيباً تناديه الضفادع فلا يجيب وتغوص الجرادة فى قعره فلا تغيب ، وهذه صورة جميلة فى هجاء النهر . وله فى البركة والفوارة صورة مليحة مستحسنة نرويها هنا :

وبركة منظرهـــا يطربُ للماء فيـــه ألسن تعرب
تحسبها من طول ترجيعها دائمـــة تنشد أو تخطب
كأن فواراتهـــا وسطهـــا إذا ترامت لعبٌ تلعب
من يمنة فيهـــا ومن يسرة قنطـــرة واقفـــة تذهب

فالفوارة خطيبة متكلمة تنشد أو تغنى أو كأنها تلعب ، بل هى قنطرة تقف وتنتقل .

السفينة

ورسم الشعراء ما كان يجرى على الماء من سفن كثرت لوفرة الأنهار ، فسالت فيها كما تسيل السيارات اليوم فى دروبنا ، وكان هذا الرسم شبيهاً بصور القدماء لما يسبح على الرمل من هوادج . وبشار يقول إن تيار البحور يتلاعب بالسفينة ، وربما رأيت نفوس القوم تجرى من جريها لرعبهم بتمايلها . وصوّرها مسلم بن الوليد كما يصور الجاهليون طبقات الرمل، بل جعلها تسير من الإشفاق فى جبل وعر تتثنى وتختلج ومجذافاها يسوقانها كجناحين ، فهى كالعقاب

تدلت من هواء على وكر ، وحين تواجه الصبا تمشى متمايلة كمشى العروس إلى الخدر .

وابن الرومى شبهها بالنسور فى أجنحتها الخفاقة وخراطمها تطير على أقفائها وظهورها بمصطخب التيار ، فسيرها يشبه النعائم إذا تمهلت . وأما أبو نواس فقد وصف سفينة كانت للأمين فى صورة الأسد ، كما كان له غيرها فى صورة العقاب والفرس فقال :

سخر الله للأمين مطـــايا لم تسخر لصاحب المحـــراب
فإذا ما ركابه سرن برّا سار فى الماء راكباً ليث غاب
أسداً باسطاً ذراعيـــه يعدو أهرت الشدق كالح الأنياب[1]
لا يعانيه باللجام ولا السو ط ولا غمز رجله فى الركاب
عجب الناس إذا رأوه على صه ورة ليث يمرّ مرّ السحاب

فهى لا تسير بلجام بل تجرى بغير سوط ومن دون أن يغمزها الراكب برجليه فتمر مر السحاب فلم يخرج عن وصف القدماء للمطايا ، وإنما فضلها عليهن إذ رسمها تجرى على الماء وتلك تضرب فى الرمل .

ووصف البحترى السفينة فقال : إن فرعون ظن أنه إله النيل ولكنه لو رأى ما يركب المعتز لرأى قصراً على الماء يسبح :

إذاً لرأى قصراً على ظهر لجة يروح ويغدو فوق أمواجه يجرى

وأما مهيار الديلمى فيقول إنها تعودت الطوى لا تأكل إلا الماء ، فإذا كان الفرس لا يطيق غير فارس واحد فإن الفرسان عليها مزدحمون ، تشق الماء كالحية فى التراب ، ولها زبد من سرعتها ، فإذا رحلت بالشراع مرّت كأنها من جوافل النعام ، فهو يوازن بينها وبين الناقة فيجد أن العليق عليها حرام ، ويسمى الزبد الذى ترسله السفينة لغاماً كزبد الناقة سواء بسواء . وفى هذا برهان على أن صور

(١) أهرت الشدق : واسع الفم .

البادية لم تبرح مخيلتهم ، فلم يبتعدوا عن النياق والنعام والعليق واللغام وهم ينظرون إلى السفن تعوم على الماء .

والسريّ الرفاء لا يختلف عن الشعراء فى وصفها حين يقول :

كل زنجية كأن سواد الليـ ـل أهدى لها سواد الإهاب
تسحب الذيل فى المسير فتختا ل وطوراً تمر مرّ السحاب
وتشق العباب كالحية السو داء أبقت فى الرمل إثر انسياب

فرسمها زنجية لأنها مطلية بالقار تسحب الذيل فى المسير وتشق العباب كالحية السوداء تركت أثراً بعد انسيابها .

الأزهار والثمار

أحب العربى الجاهلى الغيث فجعله نعمة ورحمة يستقى ويشرب ويسقى راحلته ويقتات ، ولكن العباسى زاد على هذا كله أنه يرى فوق النعمة ترفاً ونعيما ، فيرى المياه والأنهار والبحيرات والبرك والسفن ، ويجد الزهر والنَّوْرْ فى البساتين والرياض فينعم كذلك بمنظرها ومرآها ، ويأكل من الثمر ما لذ وطاب . وما أشرف القرن الرابع والخامس حتى انصرف الشعراء إلى الرياض والزهر والثمر ، فاستبدوا بالوصف وحلقوا فيه فأتوا بالعجب العجاب ، وخصوا كل لون من الأزهار والثمار بأوصاف مستقلة هدفوا إليها وسعوا فى تصويرها ، حتى لقد قال بعض النقاد إن الطبيعة ظفرت فى شعر الحمدانيين بنصر عظيم ونهضة طيبة . وقد تنبه المعاصرون فى ذلك الزمان إلى هذا ، فجمعوا ألوان هذه الأوصاف وقاموا للموازنة بينها على أنها فن مستقل ، فكتب السرى الرفاء فى ذلك وهو من رجال القرن الرابع ، عاش فى العراق والشام ونظم فى هذه الألوان وشارك فيها مشاركة شاعر وصاف ، لذلك عدنا إلى كتابه « المحب والمحبوب والمشموم والمشروب » ، ونظرنا فى مخطوطته لنجمع أشتات هذه الصور ونعرض نماذج منها لعلنا ندلل للقارىء

على روعة ما وصل إليه الشعر فى هذا العصر ، كما فعل المؤلفون بعده، فجمعوا من فصوله وجعلوها فى كتبهم ، كنهاية الأرب للنويرى وغيره ؛ فقد نقلوا عنه بعض موضوعاته وفيها كل عجيب : نفح الأنوار وسقوط الطلّ عليها ، واهتزاز الأوراق والأغصان، والشقائق ، والبنفسج ،والأقحوان ، والنرجس ، والسوسن والياسمين ، والخيرى ،والبهار ، والجلنار ، والسفرجل ، والزعفران . ولا سبيل إلى سردها كلها فى كتاب موجز كهذا الذى نكتب فيه ، وفيها شعر جميل وثروة ضخمة .

ولعل أحسن الشعراء فى هذا الباب هو الصنوبرى ، فقد دعاه مؤرخو الأدب بشاعر الرياض ، وسموا الفن الذى حلق فيه بالروضيات ، بل إن ديوانه بستان تتمايل أغصانه بالثمر ، وتهتز نباتاته بالنور والزهر ، رسم الفصول وما تنبت من زهر وثمر فلم تفته واحدة منها ، ولم يقصر شعره على فصل واحد ، ولكنه فضل الربيع :

إن كان فى الصيف ريحان وفاكهة ... فالأرض مستوقد والجو تنور
وإن يكن فى الخريف المحل محترقاً ... فالأرض محصورة والجو مأسور
وإن يكن فى السماء الغيم متصلا ... فالأرض عريانة والجو مقرور
ما الدهر إلا الربيع المستنير إذا ... جاء الربيع أتاك النور والنور
فالأرض ياقوتة والجو لؤلؤة ... والنبت فيروزج والماء بلور
لا تعدم الأرض كأساً من سحائبه ... فالنبت ضربان سكران ومخمور
فيه جنى الورد منضود موردة ... به المجالس والمنثور منثورُ
هذا البنفسج هذا الياسمين وذ النـ ... ـسرين ذا سوسن بالحسن مشهور

فالصيف ذو فاكهة وريحان وفى الخريف تتصل الغيوم وتتعرى الأرض ويسود القر ، وأما الربيع ففيه النَّوْر والنور ، والأرض خضراء والجو صاف والماء بلور والنبات سكران أو مخمور ، والورد منضود والمنثور منتثر .

ووصف كشاجم الشقائق حمراء مصقولة كأنها وجنات أربع قد جُمعت ،

ولكل واحدة فى صحنها خال . ورسم المهلبيُّ البنفسج كأنها أوائل النار فى أطراف كبريت . وشبه الشعراء الورد بالخدود ، وزهر الأقحوان يتضاحك فوق ساق دقيقة كأنه سكران يتثنى ؛ والنرجس والخيرى والسوسن والنارنج والآذريون تلتقى فى صور جميلة كما تلتقى الحسان فى عرس كل تحمل أجمل زينتها وأطرف أصباغها . وقد قال أحد الشعراء فى البنفسج :

وكأن البنفسج الغض يحكى أثر اللطم فى خدود الغيد

وقال أبو فراس يصف الجلنار :

وجلنـــار مشرق على أعالى شجره
كأن فى رءوســه أحمــره وأصفــره
قراضـــة من ذهب فى خرق معصفــره

أما الثمار كالتفاح والسفرجل فقد تلاعب بهما الشعراء فشبهوهما برسل القبل حين تعض بالأسنان ، ورسموها بما فى الوجه من صفرة أو حمرة لأنهم كانوا يتهادون بهما . ووصفوا العنب والموز ، ويقول ابن الرومى فى الموز :

يكاد من موقعــه المحبوب يدفعــه البلعُ إلى القلوب

الرياض

ونظر الشعراء إلى الطبيعة يرقص فيها الزهر ويلتمع النور ويتمايل الثمر ، ويختال الشجر ، فوجدوا كأن الدنيا فى عرس أو كأنها فى عيد ، فأثنى ابن الرومى على آلاء الرحمن لهذا المنظر الجميل ، ووجد أن الروض قد اكتسى بأفواف الحبر فكأن الطبيعة أنثى تبرجت للذكر بعد حياء وخفر . ونظر إلى الرياض فرأى فيها مصابيح توقد وتلتمع ، والزهر يتضاحك ويرسل أريجه ، وكأن البساتين تختال كما تفعل الفتاة فى خيلائها تشكر المولى على ما أنعم وتثنى على السماء فى أرج وعطر ، والنسيم يسرى كما تسرى الأرواح فى الأجساد

فتحمل شكرها إلى بارئها ، والحمائم تتداعى كالبواكى أو القيان الشوادى أو كما تغرد الطير فى الأيك . ويلح الشاعر على معنى الضحك فى النور ويرسمه كما نرسم الأناسى فى عين اليقظى وجيد الناعسة ، والنبت قد اكتسى بالأصباغ فكأنه يلبس الطيالس أو يحكى الطواويس ، بل هو يجد حين المطر مأتماً فى السماء يبكى والأرض تحته كالعروس فرحة مستبشرة .

والبحترى حسب أن الربيع يتكلم من حسنه ، فهو يختال ضاحكاً مسروراً لما يرى من زهر ونور ، فالورد ينبه النوّم النعس ، والبرد يفتق الزهر فكأنه يبث حديثاً كان مكتوماً ، والشجر اكتسى بلباس كالوشى منمنم ، ورق النسيم حتى لكأنه أنفاس الأحبة ، فتغنت الأوتار وانتشى الندمان كأنهم البدور يستحثون الأنجم . والشاعر يصف البرق يلمع ، والمطر يمتد إلى الأرض كحبال فتتضاحك الأودية وتنتثر اليواقيت وقد جلل النّور ظهر الأرض ، وتقلبت الألوان على الطبيعة فغرد الطير وهبت الريح تختال كالعذارى .

وأبو تمام يشبه زهر الربى بالقمر ، ويحسب أن كل زاهرة تترقرق بالندى فكأنها عين تحدق فى الناس فيقول :

من كل زاهرة ترقرق بالندى ... فكأنهـا عين إليك تحدر
تبدو ويحجبهـا الجميم كأنها ... عذراء تبدو تارة وتخفـر
حتى غدت وهداتها ونجادها ... فتنين فى خلع الربيع تبختر
مصفـرة محمرة فكأنهـا ... عصبٌ[1] تيمن فى الوغى وتمضّر
من فاقع غضّ النبات كأنه ... درّ يشقق قبل ثم يزعفر

وهذه ألوان محببة مزج الشاعر بينها فجاءت لوحة مترعة بالفن صادقة الرسم كأنها صورة الدنيا تنطق بالجمال .

وأما رقص الأشجار وتثنى الأغصان فالبحترى يشبهها بالعذارى هبت

(١) العصب : برود مخططة يمانية ومضرية .

الريح بها فأرقصت أفنانها ، وتقاربت للتعانق كالأحبة تنعطف وتصغى للأسرار أو تستمع إلى الغزل . وابن المعتز يزيد على هذا أن الأغصان فى رقص وشرب وسماع . والصنوبرى يفتن فى رسم الشجر فيقول فى السرو بحلب :

سروها الدانى كما تد نو فتاة من فتاها

ثم يصفه كما نصف الغوانى تتلاعب ويداعب بعضها بعضاً فيقول :

والسرْو تحسبه العيون غوانيا قد شمرت عن سوقها أثوابها
وكأن إحداهن من نفح الصبا خودٌ تلاعب موهنـاً أترابها
لو كنت أملك للرياض صيانة يوماً لمـا وطىء اللئام ترابها

فأعار الشجر صورة الآدميين وخصّ التشبيه بأحسن بنى آدم صورة وحسناً وهى المرأة ! ودعا إلى تكريم الشجر وحبه والحفاظ عليه كما تدعو حكومات العالم اليوم إلى المحافظة عليه ورعايته .

الليل والأفلاك

وذهب الشعراء فى وصف الليل مذاهب القدماء ، فقال بشار : ما لليل لا يبرح كأنه موصول بليل آخر فما يتزحزح ، ورأى أن الكرى هو الذى أطال ليله ، أو كأنه التغميض نبا عن عينيه كأن جفونهما قصار لا تتقارب . وابن الرومى شبه الليل بالدهر لطوله قد تناهى فليس ثمة مزيد كأن نجومه نجوم الشيب لا تزول ولكنها تزيد يوماً بعد يوم ، وأبو العلاء المعرى شبه الليل بعروس من الزنج .

وتطرقوا إلى النجوم والأفلاك كذلك ، فرأى ابن المعتز أن كل نجم غائر ، وأن هلال السماء كطوق عروس فوق غلائل سود بل إنه كمنجل قد صيغ من فضة يحصد النرجس من زهر الدجى ، وأن الثريا كالعنقود فى الغرب ، بل إنها فى أواخر الليل كتفتح الزهر أو كلجام مفضض ، أوأنها قدم تبدت من ثياب حداد . والبحترى يرى سهيلا كشخص ظمآن جانح يكرع . ووصف ابن

الروى الشمس كالورس المزعزع حين تقضى نحبها . وابن المعتز يصف الصبح قائلا :

والصبح يتلو المشترى فكأنه عريان يمشى فى الدجى بسراج

وفى كثير من هذه الصور إبداع جديد وتشبيهات حية تستعير صورها من الناس والمخلوقات أو الأشياء فى الطبيعة .

الأطلال

وسار الشعراء العباسيون كذلك فى وصف الأطلال مسير القدماء ، فوقف بشار بها وبكى أبو تمام ديار الأحبة ، ودعبل وقف بمنازل الرسول ، والبحترى رثى المنازل كذلك وبكى على الدمن الموائل كالنجوم فإذا عفت فهو يتساءل بأى نجم يهتدى ؟ ! وهذه الصور لا جديد فيها ولكننا أوردناها لننتهى إلى تعلق القوم بأوصاف القدماء فى كثير من أغراض الشعر .

القصور والأبنية

رأينا أن الشعراء العباسيين قلدوا فى وصف الأطلال ووقفوا عند معانى الأقدمين ، ولكنهم على ذلك وصفوا القصور والأبنية الجديدة ، فرسم البحترى قصراً بناه المتوكل على الله بن المعتصم ، وشبه علوه بجبل رضوى أو شواهق خيبر ، وقال إن الناس ينظرون إليه كما ينظرون إلى نجم المشترى . وقد عانقت شرفات القصر قطع السحاب ، فكأنه يصف ناطحات السحاب لعصرنا الحاضر .

ووصف البحترى كذلك قصراً بناه المعتز بالله فصوّر الحمام وقد ذعر من منظره حين ترنم فوقه ، وصوّر حيطان الزجاج لججاً تموج على السواحل ، وكأن تفويف الرخام حبك الغمام رصفت فى ألوان مختلفة ، وكأن سقوفه المذهبة تنير السبل فى الظلام . وأما بساتين القصر فكأنها كسيت بالبرود الموشاة ، والأشجار

فيها مثل العذارى الغيد تمايلن عشية حاليات وعاطلات .

وتناول فى وصفه قصوراً أخرى نقصر عن تعدادها وتلخيص موضوعاتها ، فكأنه مهندس معاصر يرسم الأبنية ويصف صورها وأوصافها فى شعر غنائى يتخيل فيه الغمام والبرود والعذارى تختلط فى لوحة واحدة ؛ وتحس فى وصفه لقصور المتوكلية كأنه يرسم المدن الحديثة وقد لمعت قصورها كالكواكب تضىء للسارى السبيل ، وهذا ما يشاهده المسافرون اليوم حين يركبون متن الجو ويحلقون فوق العواصم الكبرى خلال الليل . ولن ننسى وصفه إيوان كسرى فقد أبدع فيه وأجاد :

وأما الصنوبرى فقد صور مدينة حلب وحولها القرى كأنها بدر الدجى والقرى أنجم زهر ، ثم رسم الجامع والمئذنة والفوارة والقبة والسارية ، والشوارع والدور ، وفعل مثل ذلك حين زار دمشق، فوصف شامخ البناء وخاصة الجامع الأموى .

الأطعمة والمآكل

وليس عجيباً أن يعرض الشعراء لوصف المآكل والأطعمة بعد أن عرضوا للسماء والماء والزهر والثمر ، والنبت والشجر ، وصيد البر والبحر ، فكأنهم يريدون أن يصفوا كلّ ما وقع لهم .

وصف ابن الرومى اللوزينج ، وهى حلواء تشبه القطائف وتؤدم بدهن اللوز ، فقال :

مستكثف الخبز ولكنه أرق جلداً من نسيم الصبا
كأنما قدت جلابيبه من أعين القطر إذا قببا
يخال من رقة خرشائه شارك فى الأجنحة الجندبا (١)

(١) الخرشاء : قشرة البيضة ، وكل شىء أجوف فيه انتفاخ — الجندب : الجراد .

لو أنه صوّر من خبزه ثغراً لكان الواضح الأشنبا[1]
من كل بيضاء يحب الفتى أن يجعل الكف له مركبا
ذيق له اللوز فلا مرة مرّت على الذائق إلا أبى
وانتقد السكر نقاده وشاوروا فى نقده المذهبا

فهو كثير الخبز ولكنه رقيق فى جلده أرق من النسيم وقشره ناعم كأنه أجنحة الجرادة ، مزج باللوز والسكر وأصبح يحبه كل فتى ويتمناه كل إنسان . فابن الرومى وصفه فى دقائقه وتفصيلاته كما وصف الخبز فى مراحله بيد الخباز يدحو الرقاقة ، فتتحول من كرة إلى قوراء كالقمر ويرسم صورة الحجر يرمى فى الماء ، وكما وصف الزلابية فى رقة القشر والتجويف كالقصب ، وجعل الزيت المغلى كالكيمياء ، يحيل العجين من لجين إلى شبابيك من الذهب .

وكشاجم رسم القطائف كذلك ، ولا عجب فقد كان طباخاً لسيف الدولة قال :

كأنه إذا تبدى من كثب كواثر النحل بياضا وثقب
قد مجّ دهن اللوز مما قد شرب وابتل مما عام فيه ورسب

ثم وصف البطيخ فى لغة سهلة محببة تعوّدنا ها فى رسمه للمأكولات خلال قصائده :

يا جانى البطيخ من غرسه جنيت منه ثمر الخلد
لم يأتنا حتى أتتنا له روائح أغنت عن الند
كأنما تكشف عنها المدى عن زعفران زيف بالشهد
بظاهر أخشن من قنفذ وباطن ألين من زبد
كأنما فى جوفه قهوة ينقع فيها عنبر هندى

فهو ثمرة الخلد ورائحته تغنى عن الند ، ولونه كالزعفران مزج بالشهد ،

(١) الشنب : ماء ورقة وبرد ، وعذوبة فى الأسنان .

ظاهره كالقنفذ فى خشونته وباطنه كالزبد فى لينه .

وقد صور الشعراء كذلك الدجاج المطبوخ والفراخ ، ووصف ابن العميد طعامه وصفاً مسهباً فى قصيدة تسيل بالكوامخ والأطايب من المآكل ، ووصف السرى الرفاء الحمل المشوى وصفاً جميلا ، قد شق حشاه ، وصور الصابى طباخه حين يطبخ له العجل والخروف .

مرافق البيت

ووصفوا ما كان فى البيوت من مرآة وخاتم وسبحة وثوب ودواة وأقلام ودفاتر ، ومن شمع ونحل ومروحة ودنانير وفرو ، وجعلوا لها مكاناً فى دواوينهم ، ونثرها المؤلفون فى كتب الأدب ، كما فى كتاب التشبيهات لابن أبى عون ، والتحف والهدايا للخالديين ، ونهاية الأرب للنويرى ، وقد جمع هؤلاء الأدباء كل ما يخطر فى البال من هذه الأوصاف مما تهاداه الناس أو استحسنوه ، ولا سبيل إلى حصر هذه الألوان فهى كل حياتهم الاجتماعية وحضارتهم وتمدنهم ، ولسنا نؤلف فى هذا هنا ، ولكننا سنكتفى بعرض نماذج من وصفهم لها .

أهدى المرىمى إلى أبى الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون مرآة ووصفها مع الهدية قال

مكشفة ستر العمى عن ذوى العمى ... ومنطقة فى وصفها ألسن الخرس
بحيرة نور موجهـا متدافـع ... وليس لها غير التألق من حس
لهـا نور إفرند ورونق جوهر ... يكدره أدنى التنفس واللمس

فهى تكشف الصور وتُنطق الأوصاف ، تموج بالنور وتتألق بالحس كنور السيف ووشيه ورونق الجوهر ، تتكدر باللمس أو بالتنفس . وشبيه بهذه الصورة ما قاله أبو بكر الخالدىّ فى المرآة حين تتنفس أمامها الحسناء فتشبه الغيم الأبيض :

وتنقبت بخفيف غيم أبيض هى فيه بين تخفر وتبرج
كتنفس الحسناء فى المرآة إذ كملت محاسنها ولم تتزوج

ووصف ابن الرومى الدواة سوداء محلاة بالذهب حين أهداها إلى أحد الرؤساء :

قد بعثنـــا إليك أم المنايا والعطايا زنجية الأحساب
قد تحلت بصفرة وكذا الزنـ ـج تحلى شكلا بصفر الثياب
فى حشاها بغير حرب حراب هنّ أمضى من مرهفات الحراب

فهى زنجية وحليها الأصفر كثياب الزنوج ، والأقلام فيها كالحراب بل أمضى منها .

ووصف نطاحة الكاتب دفتره فشبهه بالروض أو بالبرد فى وشيه ، فيه السطور منظومة مشكولة منقوطة كأنه بستان خط غير أن الثمار اتخذت رسم الحروف فيه . وابن المعتز صور القلم كالفلك يجرى بما شاء ، يلثم القرطاس كما يقبل البساطَ الشكور ، وهو يجلب العطايا ، أو المنايا ، صغير لكنه كبير الأفعال .

وأبو بكر الخالدى وصف مروحته فجعلها من النخل والخيزران لبست سواداً كحداد العشاق ، ترد القيظ وتخفى السر وتصلح لضرب الدلال ويوحى بها فى عروض الكلام . ووصف الصنوبرى الشمعة فرأى أنها تحول الليل نهاراً وأنها شجر يحمل ناراً ، وهى عذراء تفتض من أعلاها. والحسين بن الضحاك رسمها صفراء كذلك ولكنها مثل الأفاعى إذا أهبت ، وشعلتها زرقاء كأحداق الروم :

ولم أر من قبلها أنفساً تذيب الجسوم بأحراقهـــا
وإن مرضت لم يكن برؤها بشىء سوى ضرب أعناقها

وابن الرومى جعلها هيفاء من ندماء الملوك ، صفراء كالعاشق المدنف ،

فهى تكيد الظلام كما كادها ، فتفنى وتفنيه .

والشاعر الصنوبرى وصف نعلا يستهديها فرسم أجزاءها وألوانها وصورها كالطائر ترفرف ، فكأن خرزها بالخيط يشبه عيون النمل ، وكأن شكلها يشبه أذن بقر الوحش فهى حيناً كالحية وحينا كالعقرب إذ تقبل أو تدبر .

وتعرض أبو تمام للثياب فوصف كسوة الصيف كقشر البيض أو السراب الرقراق فى القفر ، يرجف بالريح كأنه كبد المحب أو قلب الخائف ، يلصق بالمتن والأضلاع ويطرد الهجير . وكذلك وصفها التنوخى فجعلها تخفق كقلب الجبان ، أو السراب والماء والسناء والبهاء حين تلتمع جميعاً .

* * *

وهكذا رأينا هؤلاء الشعراء خلال خمسة قرون يقف بعضهم بالأطلال يبكى الديار والمنازل ، وبعضهم يقف بالقصور فيصف الرياح والوحش والجآذر كأنه فى فلاة ، ومنهم من يركب المطى إلى الممدوح ، ويصطنع كثير منهم ألفاظاً بدوية وصوراً جاهلية . ولكنهم إلى جانب ذلك جددوا فى كثير من صور الوصف فى الطبيعة فرسموا ما لم يرسم الأقدمون وصوروا ما لم يقع فى الجاهلية وصدر الإسلام ، فكانت ثورة سايرت الزمن فى كثير من نواحى حياتهم الاجتماعية ، فخلفوا صوراً تمثل عيشهم وحضارتهم ، والأدوات التى كانت بين أيديهم والمشاهدات التى تراقصت أمام أعينهم .